بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 27 أبريل 2016

# إشكالية المنهج التاريخي من منظور كارل بوبر

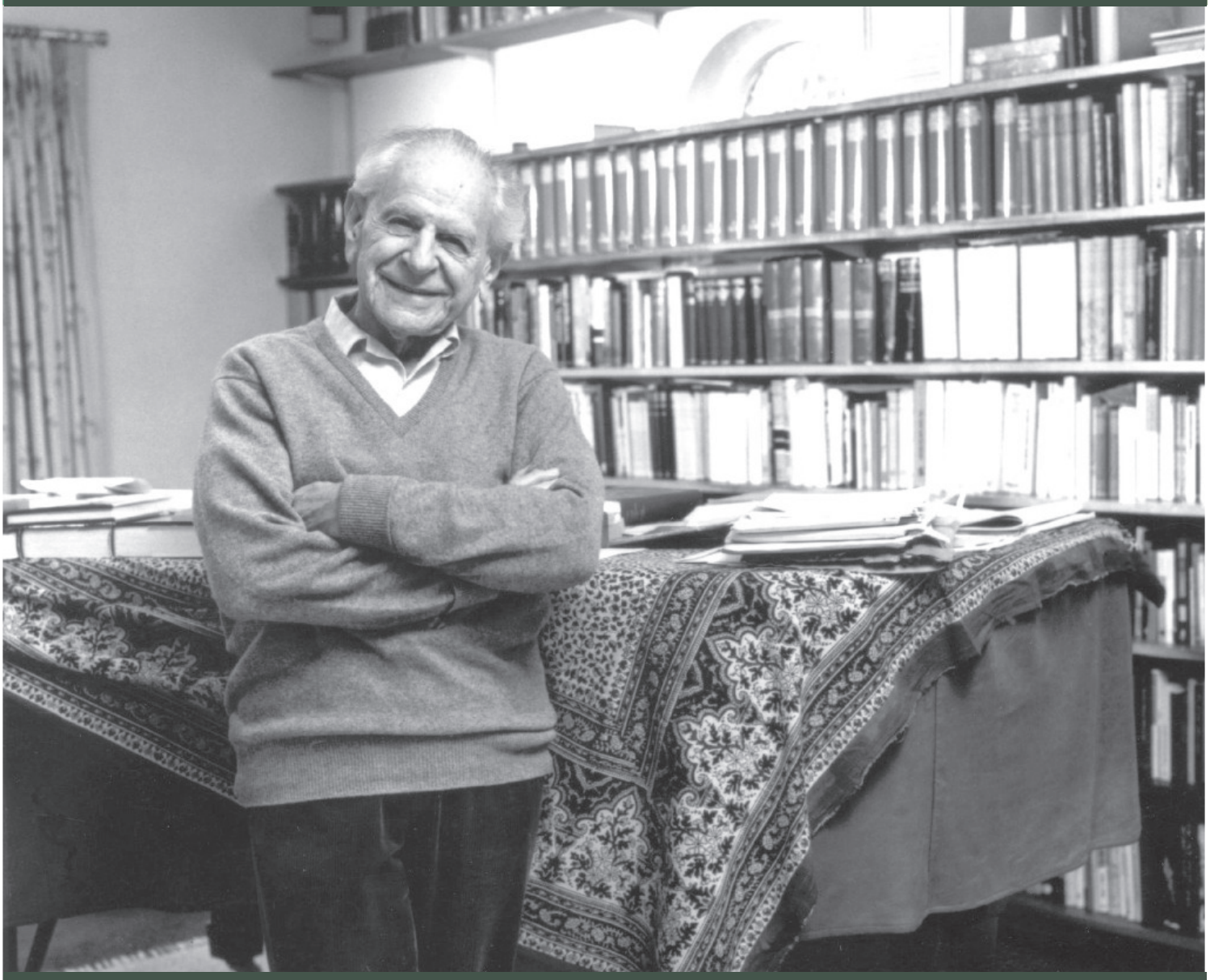




**محمد بكور**

باحث مغربي



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com



جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016

## الملخص:

يُعدُّ الفيلسوف النمساوي كارل بوبر، الذي يصنّف نفسه آخر التنويريين، من أهمّ فلاسفة العلم في القرن العشرين. بالإضافة إلى نظريّته الإبستمولوجية، وطرحه المتفرّد الذي صاغه في مقولة «القابلية للتفنيد»، تُعدُّ إسهاماته في النقاش الدائر حول المعرفة التاريخية، وخصائص المنهج التاريخي، ونقده اللاذع للنزعة التاريخانية، ذات قيمة فعّالة في بناء صرح علم التاريخ.

خصّص بوبر نصيباً وافياً من جهده العلمي لنقض بنيان التاريخانية في مختلف صورها، باعتبارها نظريات مدمّرة للإنسانية، وإيديولوجيات تستند إليها الأنظمة الشمولية.

كان كارل بوبر، إلى جانب فلاسفة آخرين، من أبرز المنتقدين للمدرسة الوضعية، لكنّه، بحكم صلاته الفكرية بهذه المدرسة، وتأثّره ببعض طروحاتها، حرص على التوفيق بينها وبين خصومها؛ إذ يقترح مخرجاً لإشكالية التفسير والتأويل في المعرفة التاريخية.

تنطلق الوضعية من مسلّمة أساسية هي «علمية» هذه المعرفة، وتحقّقها الموضوعي خارج الذات؛ فالتاريخ هو مجموع أحداث واقعية يتمّ اكتشافها من طرف المؤرّخ، ومن ثمّ، فهي حَريَّة بتطبيق «المنهج العلمي» الصارم القائم على دراسة الوثائق والمقارنة بينها. في حين يذهب التيار القائل بالتأويل إلى اعتبار التاريخ نتاج عملية بناء ذهني ينجزها المؤرّخ. من هنا، إن هذا الأخير، مهما حاول اقتراف الموضوعية، وجعل عمله يرقى إلى مرتبة العلم، فإنه يكتب عملاً أقرب إلى نصّ أدبي منه إلى منتوج «علمي».

يرفض بوبر هذه المقولات، التي تضع حدوداً قسريّة بين «العلم واللاعلم»، ويقترح مقولة العوالم الثلاثة لتفسير طروحاته. ومن خلال هذه المقولة، استطاع بوبر التوفيق بين نظريتي التفسير والتأويل في منهج الكتابة التاريخية.

## مقدّمة:

«**قد أكون على خطأ، وقد تكون أنت على صواب؛ وببذل الجهد قد نقترب أكثر من الحقيقة**». بهذه المقولة الموجزة يلخّص كارل بوبر مشروعه الفلسفي، الذي يحرص على وسمه بـ «العقلانية النقدية»، والذي أنتج ضمنه أعمالاً قيّمة في فلسفة العلم، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والتحليل النفسي، جعلته واحداً من أهم فلاسفة القرن العشرين. وتقوم نظريته على نقد الاتجاهات العلموية السلطوية من جهة، وعلى رفض الاتجاهات التشكيكية العدمية في مجالات العلم، والأخلاق، والسياسة، من جهة ثانية.

لقد كان بوبر، بحقّ، فيلسوف العلم؛ لأنه كرّس جهوده العلمية كلّها للبحث في إبستمولوجيا المعرفة الإنسانية، لكنه، في الحين نفسه، سكنه همُّ مستقبل البشرية أمام هيمنة الفكر الشمولي، في النصف الأول من القرن العشرين، الرامي إلى إنشاء مجتمعات مغلقة تقضي على حرية الفرد، وتلغي العقلانية. فخصّص نصيباً مهمّاً من أعماله الغزيرة لقضايا التاريخ الفلسفية والمنهجية، منطلقاً من تصوّره الفلسفي للنقد العقلاني، الذي يعني «الاستعداد للإنصات إلى الحجج النقدية، وأن يبحث المرء عن الأخطاء التي وقع فيها، وأن يتعلّم منها»[1]. فالنقد ليس منهجاً للعلم فحسب؛ بل هو طريقة للتفكير، وطريقة للحياة.

ولد كارل بوبر في فيينا عام (1902م)، لأبوين يهوديين تحوّلا إلى البروتستانتية في ظروف الاضطهاد. نشأ في أسرة مثقفة، فقد كان أبوه حائزاً درجة الدكتوراه في القانون، وأمه مغرمة بالموسيقا، نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة (1928م) من خلال رسالة حول المنهج تحت إشراف كارل بوهلر. وفي سنة (1934م) نشر كتابه الرئيس (**منطق الكشف العلمي**)، الذي حقّق له شهرة كبيرة. وبعد الاحتلال النازي، اضطر إلى مغادرة النمسا باتجاه نيوزيلاندا، حيث ألّف كتابه المهم في السياسة والاجتماع (**المجتمع المفتوح وأعداؤه**). اختار الاستقرار في إنجلترا. وعُيّن، سنة (1947م)، أستاذاً للمنطق ومناهج العلم في كلية لندن للاقتصاد. حصل على لقب «سير» وخمس عشرة دكتوراه فخرية. توفّي في (17) أيلول/ سبتمبر (1994م)، مخلّفاً عدّة مؤلّفات حول إبستمولوجيا المعرفة الإنسانية[2].

في سن السابعة عشرة من عمره، قرّر بوبر أنّ الإيديولوجيا السائدة في وقته غير علمية، وغير قادرة على الاستمرار، فقد اعتنق الفكر الماركسي في بداية شبابه (1919م)، وانخرط في جمعية مدرسة الطلبة

1 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، تحرير مارك أ. نوترنو، ترجمة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 292، نيسان/ أبريل- أيار/ مايو 2003م، ص 29

2 بوبر، كارل، **درس القرن العشرين**، ترجمة وتقديم الزواوي بغورة ولخضر مذبوح، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م، ص 8

الاشتراكيين الشيوعيين، قبل أن يغادرها بعد شهور قليلة.[3] وكانت هذه التجربة القصيرة كافية كي يدرك بوبر أنه ارتكب خطأ فادحاً عندما قبل اعتقاداً خطيراً، بشكل دوغمائي، ودون ممارسة أيّ تفكير نقدي، كما أحسّ بخطورة استخدام العلم لتبرير عقيدة تؤمن، صراحةً، بامتلاكها مفاتيح المستقبل البشري. ولقد كان ذلك بداية تشكّل الموقف الإبستمولوجي لبوبر، ومنطلق مذهبه الفلسفي حول العلم والسياسة. وفي الوقت نفسه، كانت المناقشات، التي أثارتها النظرية النسبية لآينشتاين، مصدر إلهام كبير لأطروحة بوبر في معيار الاختبار، أو معيار التفنيد، الذي يمكن اعتباره أهم ما ميّز نظريته في فلسفة العلم[4].

## 1- منهج العلم:

من خلال تأمل «النشاط العلمي» للعقل الإنساني، يبني بوبر نظريته المستندة إلى كون النظريات العلمية ليست سوى مجموعة من الفرضيّات والتخمينات، تقوم التجربة، والوقائع المادية، والقضايا المنطقية، بفحصها وتمحيصها، من أجل تفنيدها جزئياً، أو كليّاً. وهذه القابلية للتفنيد هي الحدّ الفاصل بين العلم والميتافيزيقا. وبذلك إن مهمّة المنهج العلمي هي «البحث عن الوقائع التي يمكنها تفنيد النظرية؛ أي البحث فيما إذا كانت النظرية لا تتضمن أيّ خطأ، ومتى قاومت النظرية محاولات تفنيدها واختبارها، فلن تكون أكثر من تكرار فارغ لرأي مقرَّر بصورة مسبقة. إنّ إمكانية تفنيد النظرية وقابليتها للتكذيب هي ما يحدّد ما إذا كانت النظرية نظرية علمية»[5].

وعلى الرغم من أنّ هذه النظرة تبدو، أحياناً، مخالفة لأهداف العلم؛ إذ يُعتقد أنّ غاية هذا الأخير هي إثبات النظريات، لا حذف الكاذب منها؛ فإن استهداف إثبات النظريات إلى أقصى درجة ممكنة هو نفسه ما يدعو إلى إخضاعها لأقسى أنواع الاختبار. فاكتشاف الشواهد المؤيدة للنظرية يكاد لا يكون له شأن في إثباتها، عكس إخضاعها لنقد شديد يجعل كفاحها من أجل الحياة عسيراً، ويضمن البقاء للنظريات الصالحة وحدها؛ ذلك «أنّنا إذا لم نتّخذ إزاء النظريات موقفا نقدياً، فسوف نعثر، دائماً، على ما نريد؛ أي أنّنا سنبحث

3 يعود السبب إلى حادثة مؤلمة وقعت عندما سقط ستة من شبان الحزب الشيوعي على يد الشرطة النمساوية، خلال مشاركتهم في مظاهرة دعا إليها الحزب، احتجاجاً على اعتقال بعض أعضائه. كانت هذه الحادثة كافية، بالنسبة إلى بوبر، كي يغادر الحزب، ويصبح داعياً للسلام، والحرية، والليبرالية. فعندما أبدى اعتراضه على هذا الحادث، أمام رؤساء حزبه، أجابوا بأن الخسائر في الأرواح أمر ضروري للتمهيد لثورة شيوعية: «كلما حدثت أشياء فظيعة كان الأمر أفضل؛ لأنّ هذا يساعد على التهييج، وهو عامل ضروري للثورة الكبرى... أحسست أنني كنت مسؤولاً عن موت هؤلاء الشباب...». انظر: بوبر، كارل، **درس القرن العشرين**، ص 26

4 انظر مقدمة المترجم لكتاب (**منطق الكشف العلمي**)، حيث يذكر المترجم أنّ «كرافت يشير إلى أن نقطة البداية الحقيقية، بالنسبة إلى كارل بوبر، لم تكن من خلال قراءاته تاريخ الفلسفة، وإنما، على العكس من ذلك، نجد المشكلة فرضت نفسها على بوبر من خلال تفكيره الخاص، ولاسيما قراءاته لفلسفة التاريخ عند ماركس، والتحليل النفسي عند فرويد، وعلم نفس الفرد عند الفرد آدلر. فقد ساورته الشكوك حول هذه النظريات، ووجد نفسه في مواجهة السؤال الآتي: كيف يمكن للمرء أن يقرّر ما إذا كانت النظرية صحيحة؟ وكيف تحصل القضايا العلمية على صحتها؟ وكيف يمكن أن نميز بين التقريرات العلمية وغير العلمية؟». بوبر، كارل، **منطق الكشف العلمي**، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت)، ص 20

5 بوبر، كارل، **الحياة بأسرها حل لمشاكل**، ترجمة بهاء درويش، منشأة المعارف، القاهرة، 1998م، ص 148

عما يؤيدها، وسنجده، وسنصرف النظر عن كلّ ما يمكن أن يهدّد النظريات التي نفضلها، فلا تقع عليه أبصارنا. وهكذا يسهل الحصول على ما يبدو لنا حجّة هائلة على صدق نظرياتنا»[6].

يرفض بوبر أن يساير بيكون مؤسّس المنهج التجريبي، في مقولته «العلم يبدأ بالملاحظة»، ويستبدلها بمقولة «العلم يبدأ من النظريات، من الانحيازات، من الخرافات والأساطير»؛ بمعنى أنّ العلم يبدأ من معرفة فطرية، وعندما تخيب هذه المعرفة الفطرية تظهر المشكلات العملية، أو النظرية، فيبدأ التخمين، ووضع الحدوس الافتراضية لحلّ هذه المشكلات، ثمّ تُعرض تلك الحلول على الفحص والنقد. إنّ المنهج العلمي، إذاً، هو منهج الإقدام على حلّ المشكلات، عن طريق «المحاولة واستبعاد الخطأ»، الذي يختلف كليّاً عن منهج «الاستقراء عن طريق التكرار»، الذي لا وجود له. وهذا لا يعني إقصاء التجريب من حقل العلم، لكنّ الاختبارات التجريبية لا تعدو أن تكون جزءاً من «المعالجة النقدية للمشكلة». والخلاصة، التي يقرّرها بوبر، أنّ منهج العلم يقوم على الخطوات الثلاث الآتية: نعثر على المشكلة؛ نحاول أن نحلّها عن طريق اقتراح نظرية معيّنة؛ نتعلم من أخطائنا بفعل المناقشة النقدية. أو بصيغة مختصرة: **مشكلات، نظريات، نقد**[7].

بهذه الأطروحة، حرّر بوبر فلسفة العلم من سيطرة «الوضعية» بنظرتها التجريبية المتطرّفة، التي تكرّس مفهوم «السلطوية العلمية». ويصرّ بوبر على اختلافه البيّن عن جماعة فيينا من الوضعيين المنطقيين، على الرغم من إصرار خصومه، ولاسيّما مدرسة فرانكفورت (أدرنو وهابرماس)، على نعته «بالوضعي المنطقي»[8]. كما يفضل تصنيف نفسه كآخر التنويريين المؤمنين بالعلم والعقلانية، وأهميّتهما في تحقيق التقدُّم. ولأجل ذلك، رفض التصورات مابعد الحداثية المقلّلة من شأن العلم والعقلانية، مصرّاً على الأهمية العظمى للعلم «باعتباره عملاً من أهمّ الأعمال الروحية التي عرفها الإنسان حتى الآن»[9]، وفاعلية إنسانية

---

6 بوبر، كارل، **بؤس الإيديولوجية: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي**، ترجمة عبد الحميد صبرة، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص 138

7 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، مصدر سابق، ص 123. يمكن تلخيص الأطروحة البوبرية على الشكل الآتي: المعرفة العلمية بأسرها فرضية، أو حدسية افتراضية، ونموّها يتوقف على التعلّم من الأخطاء، عن طريق المناقشة النقدية، حيث تكون الاختبارات التجريبية هي أقوى الحجج المستخدمة في هذه المناقشة النقدية، غير أن هذه التجارب تسترشد دائماً بالنظرية، فلا توجد تجارب غير موجهة، كما أنّ الموضوعية العلمية تتوقف على المقاربة النقدية فقط لا غير. ويخطئ من يعتقد بأنّ الموضوعية تتعلق بتجرد العالم؛ بل إن العلم ذاته يتجه نحو الموضوعية بفضل تكريس التقاليد النقدية.

8 لعل الخصومة الشديدة بين بوبر وبين هذه المدرسة يعود إلى هجومه الساخر على النزعة التاريخيانية، التي تظن أنّ العلوم الاجتماعية تهدف إلى التنبؤ التاريخي، واكتشاف قوانين تاريخية تساعد على ضبط مسار التاريخ، في حين يعتقد بوبر بأنّ مسيرة التاريخ تتأثر في نمو المعرفة، وأنه من غير الممكن التنبؤ بما سوف يسلكه هذا النمو في المستقبل. كما يذهب إلى أن القول بوجود قوانين كلية تحكم التطور التاريخي يؤدي إلى نشوء إيديولوجيات ديكتاتورية، وهو ما عارضه مفكرو مدرسة فرانكفورت. انظر: بوتومور، توم، **مدرسة فرانكفورت**، ترجمة سعد هجرس، دار أويا، طرابلس الغرب، الطبعة الثانية، 2004م، ص 196

9 بوبر، كارل، **بؤس الايديولوجيا**، (م. س)، ص 73

حميمة ذات طبيعة تقدُّمية باستمرار[10]. لكنّه لا يفكر في العقلانية كنظرية فلسفية مثل ديكارت؛ بل يستعمل «العقل» و«العقلانية»، بدلالة القدرة على «التعلّم» عن طريق نقد الأخطاء والزلّات؛ النقد الذاتي، ونقد الآخرين. فالعقلاني هو، ببساطة، ذلك الشخص الذي يَعُدّ التعلُّم أكثر أهميّة من البرهنة على كونه على صواب، الشخص الذي يرغب في التعلُّم من الآخرين، عن طريق السماح لهم بنقد آرائه، ونقده لآراء الآخرين، في جوٍّ من التسامح والقبول بالآخر؛ إنّها تعني «المناقشة النقدية»[11]. لقد كان بوبر مسكوناً بهاجس النقد، وعَدّه المدخل الفسيح للمعرفة؛ ولذا نراه يلحُّ إلحاحاً على ضرورته، وعلى فاعليّته في المواقف العلمية، والاجتماعية، والسياسية كلّها. ولم يكن معيار القابلية للاختبار، أو التكذيب، الذي أبدعه، إلّا تجسيداً عملياً لفلسفته النقدية.

إنّ تنويرية بوبر أضفت على فلسفته ميزة أخرى مهمّة هي وضوحها، وسهولة منالها؛ فبوبر، دائماً، فيلسوف يحبّ الوضوح، ويكره العبارات المتحذلقة والجوفاء[12]، ويرى أنّ الغموض يتصادم مع مقاييس الصدق والنقد العقلاني. وباعتباره تنويرياً، اختار أن يكون مفهوماً؛ لأنّ المفكر التنويري الحقيقي لا يستهدف التأثير في الآخرين، أو إقناعهم؛ لأنّه، دائماً، على وعي بإمكانيّة أن يكون على خطأ، ولأنّه يحترم الاستقلالية العقلية للأفراد، ويسعى إلى بناء الرأي الحرّ.

ومن هذا المنطلق، ظلّت كتابات بوبر السياسية والاجتماعية، طيلة نصف قرن، تتّسم بروح التفاؤل المفعمة بالأمل في مستقبل أفضل للبشرية؛ فهو يرى أنّ «أعظم الثورات الأخلاقية والروحية في التاريخ، هي رغبة العديد من البشر المجهولين في تحرير أنفسهم وأذهانهم من هيمنة السلطة والأفكار المسبقة. إنها محاولاتهم بناء مجتمع مفتوح يلفظ السلطة المطلقة لما هو قائم، ولما هو تقليدي، والرقي إلى مستويات الحريّة، والإنسانية، والنقد العقلاني»[13].

---

10 تعتقد الدكتوره يمنى طريف الخولي بأن بوبر فتح الباب لتطور فلسفة العلم مع توماس كون (1922- 1996م)، الذي التقط فكرة الثورة من بوبر، وأقام تفسيره لتاريخ العلم على أساس من مفهوم الثورة، التي هي انتقال من «برادايم» إلى آخر. وعن ذلك نشأ مبحث (سوسيولوجيا المعرفة)، التي كرّست النظرة إلى العلم في ضوء الظروف الاجتماعية النسبية، ثم جاء بول فيير آبند ليؤكد «النسبية»، والتعددية المنهجية، واللامقايسة. انظر: **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 11

11 «إن ما أعنيه، عندما أتحدث عن العقل والعقلانية، لا يزيد عن مجرد اقتناع بأننا نستطيع أن نتعلّم من خلال النقد، أعني من خلال الجدل مع الآخرين، ومن خلال النقد الذاتي، أنّه من الممكن أن نتعلم من أخطائنا. العقلاني شخص مستعد لأن يتعلم من الآخرين، ليس بأن يقبل آراءهم فحسب، وإنما يسمح لهم بنقد آرائه، كما يسمح لنفسه بنقد آرائهم، أعني الجدل النقدي. إنّ العقلاني الحقّ لا يؤمن بأنّ الحقيقة احتكار له أو لغيره، هو يعرف أننا، على الدوام، في حاجة إلى أفكار جديدة». انظر: بوبر، كارل، **بحثاً عن عالم أفضل**، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999م، ص 248

12 خصّص فصلاً، في كتابه (**أسطورة الإطار**)، تحت عنوان (العقل أم والثورة؟)، لنقد مدرسة فرانكفورت وزعمائها أدرنو وهابرماس. وركز، بالخصوص، على اللغة المتعالمة الطنانة، التي لا تعني أي شيء، كما عبّر عن مقته للفلاسفة والمثقفين الذين يحرصون على استعمال لغة غير مفهومة. ومن الطريف الانتباه، هنا، إلى غمز بوبر للمفكر الماركسي ماركيوز صاحب كتاب (**العقل والثورة**). انظر: **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 91 وما بعدها.

13 بوبر، **المجتمع المفتوح وأعداؤه**، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص 265

كان بوبر أخلاقياً ومفعماً بالحماسة، وكان أنموذجاً للفلاسفة المدافعين عن الانفتاح، وضرورة التعايش. ومن ثمّ، فقد كرّس الكثير من جهده الفلسفي في الردّ على أعداء المجتمع المفتوح، أصحاب المذهب التاريخاني والفكر الشمولي، وخصّص منهم، في كتابه الشهير (**المجتمع المفتوح وأعداؤه**)، كلّاً من أفلاطون، وهيغل، وماركس. فنظرية المثل الأفلاطونية، وتصورها للصور، والأشكال، والأفكار، كانت المقدّمة التي أفضت، في العصر الحديث، إلى إيديولوجيات المجتمع المغلق المعادية للمجتمع الليبرالي المفتوح، الذي يقوم على التنافس بين الأفكار المطروحة للوصول إلى أفضل حلٍّ ممكن لمشكلات الحياة؛ هذه الإيديولوجيات المغلقة بلغت ذروتها في الماركسية.

كان الانتقال من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح إحدى أكثر الثورات، التي مرّ بها الجنس البشري[14]، عمقاً؛ فالمجتمع المفتوح يطلق قوى الإنسان النقدية، ويعترف بكرامته وذاتيته الفردية، ويحرّره من السلطات السلبية كلّها. أما المجتمع المغلق، فهو مجتمع عدواني يسعى لتدمير الآخرين؛ فالفكرة الماركسية كانت تقتضي البحث عن العدو، وليس البحث عن الأصدقاء الذين من الممكن أن يساعدوا في إيجاد حلّ لمشكلات الإنسانية. كان ماركس يبحث عن العدو الذي يقضي عليه، وهكذا ابتدع الرأسمالية كعدو يجب قتله[15].

## 2- في نقد التاريخانية:

خصّص بوبر كتابه (**بؤس التاريخانية**)[16] لمهاجمة التيارات الفلسفية، التي هيمنت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي تدّعي القدرة على اكتشاف قوانين تاريخية تتيح إمكانية التنبؤ بالمستقبل، ويجمع بوبر هذه المذاهب كلّها تحت مسمى «التاريخانية»، مهما اختلفت وتعدّدت، سواء كانت تاريخانية إيمانية، أم تاريخانية طبيعانية، أم تاريخانية اقتصادية[17]؛ إذ التاريخانية، في تحديد بوبر، هي «طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض أنّ التنبؤ التاريخي غايتها الرئيسة، كما تفترض الوصول إلى هذه الغاية بالكشف عن «القوانين»، أو «الأنماط»، أو «الإيقاعات»، التي يسير التطوّر التاريخي وفقاً لها»[18]. فهي فكرة تؤمن بأنّ التاريخ محكوم بقوانين تاريخية، أو تطوريّة، أو إلهيّة مسبقة.

---

14 بوبر، كارل، **المجتمع المفتوح وأعداؤه**، (م. س)، ص 175

15 كارل بوبر، **بؤس الإيديولوجيا**، (م. س)، ص 75. «لقد كان الشعب السوفييتي يعتقد أن مهمته النبيلة هي تدمير الرأسمالية المتمثلة في أمريكا، وعندما جاء غورباتشوف فهم أن شعبه لم يكن سوياً، فنطق كلمات عميقة قائلاً: «أريد أن أجعل من شعب الاتحاد السوفييتي شعبا سوياً»». انظر: بوبر، **درس القرن العشرين**، (م. س)، ص 48

16 تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية تحت عناوين مختلفة: (**بؤس الإيديولوجيا**)، (**عقم المذهب التاريخي**).

17 بوبر، كارل، **المجتمع المفتوح وأعداؤه**، (م. س)، ص 18

18 كارل بوبر، **بؤس الإيديولوجيا**، (م. س)، ص 13

يركز التاريخاني جهوده على تحديد العلّة النهائية للتاريخ، من خلال تجاوز الوقائع المتفرّدة اللانهائية نحو الاهتمام بما هو عام وكلّي، بقصد استخلاص مبدأ مفسِّر لحركة التاريخ. ويعتقد بوبر أنّ الفكرة القائلة بخطة التاريخ، سواء كانت فكرة مبنية على الإيمان، كما تجلّت في الإنجيل، أو عند هوميروس، أم فكرة تأسست على الإلحاد كالماركسية؛ هي فكرة غير علمية. فالقول بوجود قوانين وتعميمات للأحداث التاريخية يعني أنها خاضعة للتجريب، والتحقق التجريبي، لكنّها، في حقيقتها، عكس ذلك تماماً، فهي فردية، واستثنائية، وغير متكرّرة، ولا تسمح بالتعميم، أو استنباط قوانين للتاريخ، أسوة بالعلوم الطبيعية.

ويمكننا القول: إنّ الحافز القوي، الذي حرّض بوبر على نقده للتاريخانية، كفلسفة تؤمن بأن تاريخ البشرية يتبع مساراً محدّداً سلفاً، هو رفضه العنيف للماركسية، التي تُفسّر التاريخ بنظرية الصراع الطبقي، وتتنبأ بسقوط الرأسمالية، وقيام الشيوعية. لقد كانت الماركسية، في زمن بوبر، تتمتع بجاذبية كبيرة، لأسباب عديدة، بما في ذلك فكرة العدالة الكونية، والعلاقات الاجتماعية الإنسانية، وهو ما كان يشكّل استجابة للأزمة الروحانية العظمى، التي اجتاحت أوربا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وردّ فعل لحروب التطهير العرقي النازية فيما بعد، واقتناعاً بأن الهيمنة الغربية على العالم في طريقها إلى الزوال. لكن حجّة الشيوعية الدامغة هي دوغمائيتها، ويقينها في مستقبل يوتوبيّ مقروء بوضوح، لا يسعنا إلّا الاستعداد لاستقباله. وهذا الاعتقاد بيوتوبيا سياسية هو ما يمقته بوبر، ويعدّه أمراً خطراً ومدمراً للإنسانية.

يعتقد بعضهم أنّ المؤرّخ يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث في المستقبل إذا توافرت لديه معرفة واسعة وعميقة بالماضي، واتّصف بحدّة الذهن، وامتاز بالقدرة على استشراف المستقبل من خلال الماضي والحاضر، وهذا ما شجّع بعض المهتمين بالدراسات الاجتماعية والتاريخية إلى محاولة صياغة نظريات كليّة تفسّر مسار التاريخ الإنساني. وانتعشت هذه النظريات، بقوّة، منذ القرن التاسع عشر، مثل نظريات التقدّم لهيغل، وكونت، وماركس، ونظرية شبنغلر عن تدهور الغرب، وكذا النظريات الكلاسيكية عن الدورات التي اقترحها أفلاطون، وأحياها نيتشه، وفيكو، وتوينبي، وآخرون[19]. هذه نظريات عنيدة - حسب بوبر - تتشبث بآراء خاطئة؛ بل هي نظريات حمقاء بشكل ما[20]؛ فالباحث في العلوم التاريخية ليس في وسعه أن يعيد الظاهرة التي يدرسها كلّما أراد أن يخضعها للملاحظة؛ لأنها تتحقّق مرّة واحدة فقط. ويترتّب على

---

19 بخصوص هذه النظريات، راجع: طحطح، خالد، **في فلسفة التاريخ**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009م.

20 تتفق هذه الرؤية البوبرية مع تصورات منظرين معاصرين له من أمثال كولنجوود، الذي يعتقد بأنّ «المؤرّخ لا يعلم من أمر المستقبل شيئاً، فإذا ما ادعى المؤرخون أنّ في مقدرتهم معرفة المستقبل قبل وقوعه، كنّا على ثقة بأن فكرتهم الأساسية عن التاريخ قد جنحت بهم عن دائرة الصواب... فهم لا يملكون وثائق ولا مصادر تاريخية، يستطيعون، استناداً إليها، أن يتثبتوا حقائق لم تحدث بعد، فلا سبيل أمامهم، الآن، أو بعد الآن، لأن يعرفوا شيئاً عن المستقبل الذي أوصد بابه في وجوههم». لمزيد من التفاصيل، انظر: كولينجوود، **فكرة التاريخ**، ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961م، ص115 وما بعدها. وكذلك بول فاليري الذي رفض بوضوح، في محاضرته (خطبة في التاريخ)، فكرة التنبؤ، قائلاً: «إني أتحاشى التنبؤ، إني أشعر شعوراً عارماً بأنّنا (ندخل المستقبل ناكصين على أعقابنا)، وهذا عندي أهم درس يعلمنا التاريخ إياه، وأشدّه يقيناً؛ لأنّ التاريخ هو العلم بالأشياء التي لا تتكرّر أبداً... إنّ تأمُّل الماضي يبيّن لنا إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقاً متواصلاً. وعلى العكس، يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر، الذي يسمح للإنسان بالعمل في وقت مبكر ضد المتوقع دون أن يدعي خلق الأحداث، أو تحديها؛ لأنّها، دائماً، مفاجآت، أو تنطوي على نتائج تثير الدهشة والذهول. انظر: لانجلوا، وسينيوبوس، وآخرون، **النقد التاريخي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الرابعة، 1981م، ص 309

هذا أن يكون التنبؤ التاريخي عسيراً بسبب الترابط الذي قد ينشأ بين التنبؤات والحوادث المتنبأ بها، ويُسمي كارل بوبر تأثير التنبؤ في الحادث المتنبأ به، أو، بوجه عام، تأثير المعرفة في الموقف المتّصل بها، «الأثر الأوديبي»، سواء ساعد هذا التأثير على وقوع الحادث، أم حال دون وقوعه؛ فالتنبؤات تكتنفها حدود لا منجاة منها، حيث تدفع معرفة الإنسان المجرى المتنبأ به للحوادث إلى تبديله، ومن ثمّ إلى تكذيبه للتنبؤ بنفسه[21].

«إن أفكاراً مثل التقدّم، والتدهور، والتراجع، تتضمن أحكام قيم؛ ولذلك كلّها لا بدّ، بالضرورة، من أن يكون مرجعها مقياساً للقيم. وبسبب تعدُّد مقاييس القيم (أخلاقية، واقتصادية، وعلمية)، من الواضح أنّنا قد نتقدّم في واحد، أو أكثر، من المجالات، وفي الوقت نفسه، نتأخر في آخر، ونصل إلى الحضيض»[22]. فحقيقة أنّ الإنسانية تستطيع أن تتقدّم، وأن تتقهقر، في الوقت نفسه، إنّما تبيّن أن النظريات التاريخية للتقدُّم، ونظريات التقهقر، ونظريات الدورات، جميعها تقع تحت مظلّة «العلم الزائف»؛ ولذلك يقترح بوبر أنّه بدل البحث عن معنى متوهّم في التاريخ، من الأجدر أن نعمل ما بوسعنا كي نمنح هذا التاريخ معنى. وهكذا بدل البحث «عن معنى عميق خبيء في التاريخ السياسي، يمكننا أن نسأل أنفسنا: أيّة أهداف للتاريخ السياسي يمكن أن تكون لها قيمة إنسانية؛ أهداف ملائمة تفيد البشرية؟»[23].

## 3- بين التفسير والتأويل:

قدّمت العلوم الطبيعية أنموذجاً ناجحاً للعلميّة من حيث دقّة المناهج، أو نجاعتها، لما وفّرته من قدرة على التحكّم في الظواهر الطبيعية. وبفعل الجاذبية القويّة التي مارسها هذا الأنموذج، برز التيار الوضعي، الذي أراد رفع التاريخ إلى مصاف «العلم»، ونظر إلى وقائع الماضي كحقائق ماديّة موضوعيّة يمكن أن تخضع لمنهج التفسير العلمي من خلال الملاحظة، والقياس، والتجريب، كما تسمح بتكميم النتائج وتعميمها. وفي المقابل، ظهر تيار رافض لتشييء الظاهرة الإنسانية، لاحتوائها مكوّنات باطنية وذاتية ترجع إلى محتوى الوعي، واقترحت منهج الفهم، أو التفهُّم، كوسيلة لدراسة هذه الظواهر. وفي هذا الصدد، يقول دلتاي: «إنّنا نفسّر الطبيعة، لكنّنا نفهم ظواهر الروح»[24].

ويرتبط التفهم عند دلتاي بـ «التعاطف بالتعايش»، أو المشاركة الوجدانية؛ فأن تتفهّم هو أن تعرف ما يجربّه شخص ما، من خلال نسخة من تجربته مسقطة في وعي الدارس، وأن تتعاطف بالتعايش هو أن يكون

---

21 انظر: صلاح قونصوه، **الموضوعية في العلوم الإنسانية**، دار التنوير، القاهرة، 2007م، ص 55

22 بوبر، كارل، **بحثاً عن عالم أفضل**، ص 173

23 المصدر نفسه، ص 171. يستغرب بوبر كيف يمكننا، مثلاً، أن «نَعدّ التاريخ السياسي عملاً مباشراً للإله، تاريخ اللصوصية، والحرب، والسلب، والنهب، وتاريخ وسائل التخريب المتعاظمة. فإذا كان التاريخ من صنع إله رحيم، فلا بدّ أن كانت مشيئة أن يظل مستغلقاً على فهمنا، لا تسبر أغواره. وبهذا، يصبح من المستحيل علينا أن نفهم معنى التاريخ». المصدر نفسه، ص 175

24 خصص بوبر كتابه (عقم المذهب التاريخي) لنقد حجج هذين المذهبين.

للدارس شخصياً تجارب مماثلة، فليس من اليسير أن تتفهّم دون مشاركة وجدانية. إن التفهّم لا يكون عن طريق التعميم والإدراج؛ بل عن طريق رؤية مباشرة لما تكون عليه المترتّبات الواضحة والطبيعية لحادث من الحوادث. «فنحن نضع أنفسنا في موضع الأطراف المعنيّة في حادث تاريخي، وإذاً، فنحن لا نستنتج، أو نخمن؛ فعلهم التالي؛ بل نعيد حياة هذا الفعل التالي في أنفسنا، واستجابتهم للموقف تكرّر نفسها في عقولنا، وعلى هذا الوجه، نرى سائر القصّة»[25].

بالنسبة إلى بوبر، لم يوفّق المذهبان في صياغة منهج ملائم للعلوم التاريخية، نظراً لقصور رؤيتهما الفلسفية عن إدراك حقيقة العلم وماهيّته؛ فالمشكلة تبدأ من الاعتقاد بوجود منهج علمي واحد هو المنهج الاستقرائي، القائم على الملاحظة والتجريب، والمفضي إلى التعميم. إنّ هذا الاعتقاد الفاسد أنتج تصوّراً مغروراً قائماً على «سلطة العلم الطبيعي». لقد انتهت، إلى الأبد، حقبة العلم السلطوي، وتغيّرت النظرية السلطوية للمعرفة إلى نظرية نقدية ضد السلطوية؛ ولهذا فالمنهج العلمي هو، أساساً، منهج المناقشة النقدية، والفحص النقدي للحدوس الافتراضية. ولا مجال، الآن، لمن يرى أن «العمل المخبري» له منزلة أعلى من منزلة الفروض. وانطلاقاً من هذا، يقول بوبر، في حدود معينة، بوحدة المنهج العلمي بين العلوم التطبيقية، والنظرية، والتاريخية.

تقوم فكرته الأساسية، في هذا السياق، على أن منهجية كلّ من العلوم التاريخية والطبيعية تبدأ من أساطير، من انحيازات تقليدية، ومنها تواصل المسير عن طريق النقد، أو الاستبعاد النقدي للأخطاء، وتعديلها، وتصويبها. وبتصويب هذه الأخطاء تثار مشكلات جديدة، توجب ابتداع حدوس افتراضية، وإخضاعها للمناقشة. ويمكن تمثيل ذلك بالخطاطة الآتية: مشكلة علمية أو تاريخية، نظرية مبدئية، المناقشة النقدية، مشكلات جديدة.

تنشأ المشكلات، إذاً، انطلاقاً من الشعور بوجود خلل في المعارف والأحكام، فهي تفترض، قبلاً، خلفية من الأساطير، من النظريات المبدئية، أو من التراث التاريخي، وتفترض، أيضاً، قبلاً، أنّ تلك الأساطير، والنظريات، والتراث، لم تقبل بطريقة نقدية؛ بل لوحظت بعض الصعوبات الكامنة فيها. يتمّ بعد ذلك صياغة حلّ مبدئيّ للمشكلة (نظرية مبدئية)، يخضع هذا الفرض لمناقشات نقدية، فينتج عن ذلك مشكلات جديدة[26].

مع ذلك، يقترح بوبر اعتماد التمييز بين علم الاجتماع، والنظرية الاقتصادية، والنظرية السياسية، من ناحية، وبين التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، من ناحية أخرى؛ فالتاريخ يتميّز بالاهتمام بالحوادث الواقعية المفردة المعيّنة، لا بالقوانين، أو القضايا العامة[27]. فبينما تهتم العلوم الطبيعية (على

25 قونصوه، صلاح، **الموضوعية في العلوم الإنسانية**، (م. س)، ص 174

26 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 173

27 بوبر، كارل، **بؤس الإيدولوجيا**، (م. س)، ص 146

الأكثر) باكتشاف القوانين الكلية واختبارها، تسلّم العلوم النظرية تسليماً بالكثير من القوانين الكلية، ثم توجّه جلّ اهتمامها إلى اكتشاف القضايا المخصوصة واختبارها؛ فالتفسير العلمي لحادث معيّن هو استنباط قضية تصف هذا الحادث من نوعين من المقدمات: بعض القوانين الكلية، وبعض القضايا المخصوصة، التي يمكن أن نطلق عليها «عبارة الشروط الأولية المعينة». ومن القوانين الكلية نستطيع، بمعونة الشروط الأولية، أن نستنبط القضية التي يمكن تسميتها بـ «النبأ». ومثل ذلك، إذا وضعنا حادثاً مفرداً موضع التفسير، فقد تبحث هذه العلوم عن الشروط الأوليّة الخاصّة التي يمكن أن تُفسّر هذا الحادث، أو قد تلجأ إلى اختبار فرض خاصّ معيّن، وذلك باعتباره يؤلّف، مع غيره من القضايا الخاصّة، مجموعة من الشروط الأولية، التي تستنبط منها «نبأ» جديداً يمكن مواجهته بالبينة الإمبريقية. أمّا في التاريخ، فإنّ تفسير الحدث يقوم على بيان كيف وقع؟ ولِمَ وقع؟ أي أنّه يقوم في حكاية قصته[28].

قد نلاحظ أنّ المؤرّخ يستخدم، بالفعل، القوانين الكليّة، أو النظريات، لكنّ هذا الاستخدام يكون، في غالب الأحوال، دون شعور بها. فهو يستخدمها، في الأكثر، لا على أنّها قوانين كليّة تساعده على اختبار فروضه الخاصة؛ بل تكون هذه النظريات متضمّنة في الألفاظ الاصطلاحية التي يستعملها[29]. ومن هنا، تأتي الصعوبة التي يطرحها التفسير التاريخي، ولتجاوزها يدعو بوبر إلى القيام بتحليل مفصّل لما يُسمّى «منطق المواقف»، ويرى أن هذه الفكرة استخدمها، كثيراً، المؤرّخون بدرجة من الوعي تزيد أو تنقص؛ مثال ذلك: تولستوي في بيانه أن «الضرورة» لا الاختيار هي التي دفعت الجيش الروسي إلى تسليم موسكو دون قتال حتى ينسحب إلى حيث يمكنه العثور على الطعام[30].

ومع ذلك، لا مخرج من هذه الصعوبة إلّا أن نقصد، في كتابتنا للتاريخ، إلى اتخاذ وجهة نظر انتقائية نتصورها أوّلاً؛ أي أن نكتب التاريخ الذي تهمّنا كتابته. وليس يعني هذا تزييف الوقائع حتى تلائم الإطار الفكري الذي تصوّرناه أوّلاً. ولا يعني إهمال الوقائع التي لا نجد لها مكاناً في ذلك الإطار؛ بل، على العكس من ذلك، أن نمتحن كل البيّنات المتصلة بوجهة نظرنا امتحاناً مدققاً موضوعياً، ولكننا لا حاجة بنا إلى البحث عن الوقائع والصفات كلّها، التي لا صلة لها بوجهة نظرنا. لا شكّ في أنّ التاريخ مستحيل من دون وجهة نظر؛ فعلم التاريخ، كالعلوم الطبيعية، يجب أن يكون انتقائياً في اختيار وقائعه، وإلا خنقه سيل الوقائع التي لا تربط بينها رابطة[31].

هذه الطرق الانتقائية تؤدّي في دراسة التاريخ وظائف مماثلة من بعض الوجوه للوظائف التي تؤديها النظريات في العلم. والحقّ أن هذه الطرق تحوي، بالفعل، بعض الأفكار النادرة التي يمكن وضعها في

28 المصدر نفسه، ص 147

29 المصدر نفسه، ص 148

30 المصدر نفسه، ص 152

31 المصدر نفسه، ص 153

صيغة فروض قابلة للاختبار، وهي، إمّا فروض خاصّة، وإما كليّة، لكن الغالب على هذه «الطرق»، أو «وجهات النظر» التاريخية، أنّه لا يمكن اختبارها؛ إذ إنها غير قابلة للتفنيد. وعلى ذلك، كلّ الشواهد، التي يبدو أنها تؤيدها، لا قيمة لها، ولو تعدّدت. مثل هذه النظرة الانتقائية، أو هذه البؤرة التي يدعو بوبر إلى أن نركز فيها اهتمامنا التاريخي، إذا كان يستحيل التعبير عنها في صورة فرض قابل للاختبار، فإنه يطلق عليها عبارة «التأويل التاريخي»[32].

لقد أثارت قضية المنهج التاريخي نقاشاتٍ كبرى بين الفلاسفة المهتمّين بالعلوم الإنسانية، ويشارك بوبر، بدوره، في هذه المناقشة، من خلال إعلانه الاتفاق مع كولنجوود، ودلتاي، وهايك، وأكتون، في ضرورة «تفهُّم الأحداث التاريخية»[33].

أما جيفري إلتون، فلم يبتعد كثيراً - حسب بوبر - عن هذه التصورات، على الرغم من معارضته لأكتون، الذي دعا إلى «دراسة المشكلات بدل الحقب». ويزعم إلتون أنّ المؤرّخ المنهمك في السجلات، وتواجهه مشكلات معلّقة، الواحدة تلو الأخرى، يقنع نفسه، بشكل طبيعي، بأنّ الإنجاز الحقيقي يتوقّف على خوض غمار تلك الكيانات الغامضة؛ أي المشكلات. على أنّ ذلك لا يعني أن المؤرّخ ينبغي أن يعنى عناية خاصّة بـ «التحليل»؛ أي حلّ المشكلات، فما دام التاريخ سجلّاً للأحداث وللمشكلات، التي تسري عبر الزمن، فلا يجب أن تكون «الرواية» مشروعة فحسب؛ بل، أيضاً، مطلوبة بإلحاح[34]. وبهذا المعنى، يفضّل إلتون كتابة التاريخ باعتماد تقنية الرواية والسرد مع عدم إغفال تحليل الفعل الإنساني على مرّ الزمن، من خلال مناقشة العلل المباشرة والظرفية لهذا الفعل، لكنّ الرواية ضرورية لعرض نتائج البحث في تسلسل خطيّ ينظّم الأحداث والأفكار، وفي غيابها يحدث تداخل فوضويّ بين الأزمنة؛ يصبح الماضي، إذاً، «فوضى، والمؤرخون هم الذين يفرضون عليه النظام، والشكل، والنمط، والمعنى، والوضوح».

ومن الواضح أنّ هذه الدعوى تتّفق مع أطروحة بوبر؛ فهو، من خلال العناية بالمشكلات في منهج البحث العلمي، لا يدعو مطلقاً إلى إقصاء السرد عن مناهج البحث التاريخي، ويرى أنّ «التاريخ لا يهتم، فقط، بتفسير الحوادث المعيّنة؛ بل يهمّه، أيضاً، وصف الحادث المعيّن، من حيث هو كذلك؛ إذ لا شكّ في أن وصف الحوادث المهمة، بما لها من طابع خاص، أو فذّ، هو من أعظم مهام علم التاريخ». إنّ المهمتين الأساسيتين للتاريخ هما: تفسير الحادث تفسيراً عِلّيا يقوم في بيان كيف وقع؟ ولم وقع؟؛ أي الكشف عن خيوط الاتصال العِلّي. ثم وصف الطريقة «العرضية»، التي تشابكت بها هذه الخيوط؛ أي حكاية «قصته»[35]. ومع

32 المصدر نفسه، ص 154

33 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 171

34 المصدر نفسه، ص 177

35 بوبر، كارل، **بؤس الإيدولوجيا**، (م. س)، ص ص 147- 150

ذلك، إن «عملنا لا يمكن أن يبدأ إلّا من مشكلات، وليس يصدق هذا، فقط، على ما يسميه إلتون (تحليلاً)؛ بل يصدق أكثر على ما يسميه (رواية)»[36].

باعتماد هذا التفسير، فإنّ «العديد من الحدوس الافتراضية، التي قد تبدو لنا صادقة، في مرحلة ما، قد نكتشف، في مرحلة لاحقة، أنها خاطئة؛ قد تدفعنا وثائق جديدة إلى إعادة تأويل وثائق قديمة، أو أنها قد تثير مشكلات جديدة. وفي ضوء مشكلة جديدة، يمكن أن تتكشف لنا دلالات غير متوقعة بالمرة لحفائر بدت في السابق غير ذات دلالة»[37]. ومن ثم، إن اختبارات التفسير التاريخي لا يمكن، أبداً، أن تكون صارمة كاختبارات الفرض العادي؛ فالتفسير هو، بصورة رئيسة، وجهة نظر تقع قيمتها في خصوبتها، في قوّتها على إلقاء الضوء على المادة التاريخية، إلى أن تؤدي بنا إلى العثور على مادة جديدة، وإلى مساعدتنا على تعقلها وتوحيدها[38].

من وجهة نظر بوبر، إن ثورة ليوبولد فون رانكه الاحترافية الشهيرة تحمل في طياتها «نزعة تعالمية» مبالغاً فيها؛ فالمنهج المزعوم للمؤرخ المحترف، الذي يبدأ من الوثائق، فيقرأ الوثائق، ويواصل قراءة الوثائق، هو المنهج نفسه المزعوم للعالم المحترف؛ الذي يبدأ من ملاحظات، ويلاحظ، ويواصل الملاحظة، والمنهجان مستحيلان منطقياً، فلا أحد يستطيع أن يبدأ من الملاحظة قبل أن يعرف أوّلاً ماذا سيلاحظ. وهذا يعني أنّنا يجب أن نبدأ، دائماً، من مشكلة، والمثل يصدق، تماماً، على الوثائق، فتذكرة السفر عبر القطار لا تكون وثيقة تاريخية إلا بمقدار تقديمها حلّاً لمشكلة[39]. وهذا ما انتبه إليه معاصر رانكه، جوستاف درويسن، عند حديثه عن المنهج التاريخي قائلاً: «إن البحث لا يمضي قدماً دون كشوف عشوائية، إنه يبحث عن شيء ما؛ لا بدّ من أن يعرف ما الذي يبحث عنه»[40].

بهذا المعنى، تصبح كتابة التاريخ مسألة غير ممكنة دون اتخاذ موقف محدّد من المشكلات الأساسية للمجتمع، والسياسة، والتقاليد. وإذا كان اتخاذ موقف، هو، قطعاً، عنصراً شخصياً، فهذا لا يعني أن محتوى العمل التاريخي عبارة عن وجهة نظر؛ فالمؤرخ الجيد يتحرّى، دائماً، الموضوعية، ويفصل بين مزاعمه حول صدق الوقائع التاريخية، وبين آرائه واقتراحاته، لكن اختيار الوقائع التي سيتناولها هي، بدرجة كبيرة، مسألة تحديد شخصي[41].

---

36 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 177

37 المصدر نفسه، ص 175. ويرى أنّ ممارسات المؤرخين، منذ القديم، تؤيّد دعواه؛ «فهيرودوت يبدأ من مشكلة، ويخبرنا مؤرّخ معاصر كاللورد اكتون أن ندرس المشكلات بدلاً من الحقب؛ أي أن نبتدئ دراستنا من مشكلة».

38 بوبر، كارل، **المجتمع المفتوح وأعداؤه**، (م. س)، ص 173

39 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 179

40 المصدر نفسه، ص 290

41 بوبر، كارل، **الحياة بأسرها حلول لمشاكل**، (م. س)، ص 183

غير أنّ بوبر، الذي يقرّ بالصبغة الذاتية للتفسير التاريخي، وعدم إمكانية خضوعه للتجريب والتعميم، يرفض، كذلك، اعتبار التاريخ «علماً روحياً» يخضع للفهم السيكولوجي. ولحلّ هذه الوضعية يقترح مفهوم «منطق الموقف» كمدخل لتحقّق «الفهم التاريخي».

ينظر بوبر إلى الوجود بوصفه مكوناً من ثلاثة عوالم متداخلة ومتشابكة: العالم الفيزيقي، أو عالم الحوادث المادية. والعالم الثاني: عالم الوعي والشعور، والمعتقدات، والميول النفسية؛ أي العالم الذاتي. والعالم الثالث: العالم الذي ينتجه العقل البشري، من نظريات ومشكلات. ويشتمل على الفكر، والفلسفة، والأعمال الفنية والأدبية، والسياسة، والتقاليد والقيم؛ أي العالم الموضوعي للحضارة الإنسانية.

إنّ مكوّنات العالم الثالث، التي يبدعها الإنسان، تنفصل عن مبدعها، وتتخذ مسار تطورها وتناميها بشكل مستقل، ومن صفاتها «الفعلية» و«الاستقلالية»، فالنظريات العلمية تؤثر في الواقع مثلما تؤثر فيه الأشياء الفيزيقية (ناطحات السحاب، التي تنتمي إلى العالم الأول، بنيت بفضل النظريات والمشكلات العلمية)؛ يؤثر العالم الثالث، إذاً، في العالم الأوّل بصورة غير مباشرة من خلال العالم الثاني؛ ثم إنّ مكوّنات العالم الثالث، التي لها استقلال جزئي عن عالم الوعي البشري، تدخل في تفاعل متبادل معه يمكّنه من أن ينمو وينضج، ويحصل هذا التفاعل بوساطة اللغة، التي هي سرّ إنسانية الإنسان، ووسيلة تبادل الخبرات وتحسينها. ولعل أهمية اكتشاف اللغة البشرية تتعلّق بإمكانية القصّ (السرد)، والإخبار بما يحدث[42].

يزعم بوبر أنّ الإنسان خلق نوعاً جديداً من المنتجات، أو المصنوعات، من شأنه أن يحدث، مع مرور الزمن، تغييرات كبيرة؛ تلك المنتجات الجديدة التي هي، قطعاً، من صنعنا نحن، تتمثّل في أساطيرنا، وأفكارنا، وعلى وجه الخصوص نظرياتنا العلمية. ويمكن النظر إلى هذه المنتجات بوصفها أخص نواتج النشاط الإنساني. إنها كالأدوات، أعضاء تطوّرت خارج أجسادنا، ومن ثمّ نستطيع أن نرى أنّ «المعرفة الإنسانية» تتصف بالموضوعية، أو اللاشخصية، حيث يمكن القول: إنها المعرفة المحتواة في كتاب، أو المخزونة في مكتبة، أو المتمثلة في المقررات الجامعية. بهذا المعنى الموضوعي يستعمل بوبر كلمة «المعرفة»[43].

وبما أنّ الهدف الرئيس للفهم التاريخي هو إعادة تركيب افتراضية لموقف مشكلة، فالشيء الأساس في تفهّم التاريخ ليس هو العملية الذهنية لإعادة معايشته؛ بل أكثر من ذلك، هو تحليل الموقف؛ ماذا كانت العناصر المهمّة، أو الفعّالة في الموقف؟ وعلى قدر ما يحل الباحث هذه المشكلة يكون تفهّمه للموقف

42 انظر: المقالة الثالثة: ملاحظات فيلسوف واقعي بشأن مشكلة الجسد والنفس، **الحياة بأسرها حلول لمشاكل**، (م. س)، ص ص 101-120

43 بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، (م. س)، ص 166

التاريخي. إنّ تحليل الموقف، حسب بوبر، نظرية للتفهم التاريخي تسمح بإعادة بناء موقف المشكلة كما فهمها الفاعل، وإعادة بناء وتحليل المعقبات غير المقصودة، وغير المتوقعة لأفعاله.

بذلك، يصبح الفهم عملية ممكنة؛ أي عندما يرتبط بموضوعات العالم الثالث، وهذا لا يعني إنكار أن فعل الفهم يحتوي على عنصر ذاتي، أو سيكولوجي، لكن الفعل لا بدّ من أن يميّز عن عائده الناجح؛ أي التفهُّم الحاصل، أو التأويل. وإذا اعتبرنا التأويل ناتجاً عن العالم الثالث، فسيبقى التأويل، دائماً، نظرية؛ فعلى سبيل المثال، عندما يقترح المؤرّخ تأويلاً تاريخيّاً، ويكون هذا التأويل مدعّماً بسلسلة من الحجج، بجانب مستندات، وتسجيلات، وقطع إضافية من الشواهد التاريخية؛ يثبت التأويل أنه نظرية[44].

## خاتمة:

لقد شدت أفكار بوبر الأنظار إليها، وبفضل جرأتها وثرائها أثارت موجة من الانتقادات والمساجلات، لعل أقواها كانت مع مدرسة فرانكفورت. ويمكن القول: إنّ نقد الدوغمائية، ورفض السلطوية العلمية، إضافة إلى نسف النظريات الشمولية، أهم محاور المشروع الفلسفي لكارل بوبر. فبالنسبة إليه «أوغاد المفكرين هم وحدهم غير متواضعين».

كان بوبر يؤمن بأنّ العلم هو أمل الإنسانية الكبير؛ لأن منهجه هو إصلاح الخطأ، والبحث عن الحقيقة الموضوعية، والمؤكّد أنّ الحقيقة ليست هي اليقين؛ فسقراط كان يكرّر حكمته القائلة «إنّني أعرف أنّني أكاد لا أعرف شيئاً، وحتى هذا أكاد لا أعرفه». وهذا الموقف السقراطي يدعو إلى التواضع العقلي. وفي المقابل، كان بوبر يرفض، بشدّة، النسبوية؛ لأنها تفتح الطريق أمام أشياء شريرة؛ بل هي إحدى الجرائم العديدة التي ارتكبها المفكرون.

من رحم هذه التصورات تشكلت رؤية بوبر حول طبيعة منهج البحث في حقل التاريخ، التي حاولت التوفيق بين التفسير والتأويل كمذهبين، نظراً إلى المعرفة التاريخية من خلفيتين متباينتين. لقد طرح بوبر «تحليل منطق الموقف» كمدخل للتقريب بين المذهبين، لكن ما يُلاحَظ على هذا الطرح، على الرغم من محاولة بوبر تدثيره ببناء منطقي ذي حجج متينة، أنّ نقله إلى حقل الممارسة العلمية، والبحث الميداني، يجعله غير ذي جدوى منهجية.

44 وهذا يخالف ما يذهب إليه معظم المؤرخين المهتمّين بمشكلة الفهم، الذين ينظرون إلى مواضيع فهمنا، باعتبارها تنتمي إلى العالم الثاني، كمنتجات للفعل البشري، ومن ثمّ يمكن أن تُفهم، وتُفسَّر، في صيغ سيكولوجية. انظر: بوبر، كارل، **بحثاً عن عالم أفضل**، (م. س)، ص 202

## قائمة المصادر والمراجع:


- بوبر، كارل، **منطق الكشف العلمي**، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت).
- بوبر، كارل، **الحياة بأسرها حلّ لمشاكل**، ترجمة بهاء درويش، منشأة المعارف، القاهرة، 1998م.
- بوبر، كارل، **بؤس الإيديولوجيا: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي**، ترجمة عبد الحميد صبرة، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
- بوبر، كارل، **درس القرن العشرين**، ترجمة وتقديم الزواوي بغورة ولخضر مذبوح، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م.
- بوبر، كارل، **بحثاً عن عالم أفضل**، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999م.
- بوبر، كارل، **أسطورة الإطار**، تحرير مارك أ. نوترنو، ترجمة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 292، نيسان/ أبريل- أيار/ مايو 2003م.
- بوبر، كارل، **المجتمع المفتوح وأعداؤه**، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م.
- بوتومور، توم، **مدرسة فرانكفورت**، ترجمة سعد هجرس، دار أويا، طرابلس الغرب، الطبعة الثانية، 2004م.
- طحطح، خالد، **في فلسفة التاريخ**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009م.
- قونصوه، صلاح، **الموضوعية في العلوم الإنسانية**، دار التنوير، القاهرة، 2007م.
- لانجلوا، وسينيوبوس، وآخرون، **النقد التاريخي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الرابعة، 1981م.
- كولينجوود، **فكرة التاريخ**، ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

**info@mominoun.com**

**www.mominoun.com**

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016